This item is provided to support UOB courses.

Its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission.

However, users may print, download, or email it for individual use for learning and research purposes only.

هذه الوثيقة متوفرة لمساندة مقررات الجامعة.

ويمنع منعا باتاَ نسخها في نسخ متعددة أو إرسالها بالبريد الالكتروني الى قائمة تعميم بدون الحصول على إذن مسبق من صاحب الحق القانوني للملكية الفكرية لكن يمكن للمستفيد أن يطبع أو يحفظ نسخة منها لاستخدام الشخصي لأغراض التعلم والبحث العلمي فقط.

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

الجامع

في أخبار أبي العلاء المعرّي وآثاره

ألفه
محمد سليم الجندي

الجزء الثاني

علق عليه وأشرف على طبعه
عبد الهادي هاشم

دار صادر
بيروت

هنا ، لأنه جاء لمعان منها : الرسول ، والرسالة ، والواسع ، والطفيف ، والفحل ، والماء العذب ، والمراسل في النضال ، والسهل . . . .

٦٧ — الرياشي المصطنعي :

في شرح مواضع من (الحماسة الرياشية) عمله لرجل من الأمراء ، يلقب بمصطنع الدولة ، ويخاطب بالإمرة . وهو أبو غالب كليب بن علي ؛ أنفذ نسخة من الحماسة الرياشية ، وسأله أن يخرج في حواشيها شيئاً لم يذكره أبو رياش مما يحتاج إلى تفسيره ؛ فخشي أن تضيق الحواشي عن ذلك ، فصنع هذا الكتاب ، وجمع فيه ما سنح له مما لم يفسره أبو رياش ، ومقداره أربعون كراساً [١] . قال ياقوت في (معجم الأدباء ج ١ ص ٧٤) في ترجمة أحمد بن ابراهيم أبي رياش : « وحكى أبو العلاء المعري في كتابه المعروف (بالرياشي المصطنعي) أن أبا رياش كان طويل الشخص ، جهير الصوت ، يتكلم بكلام البادية . ويظهر أنه على مذهب الزيدية ، ويتزوج كثيراً ويطلق ، وكان يقول : ولدت بالبادية ، ولعبت بالحضرمة — بستان في ناحية اليمامة له خاصّية في عظم البصل — وتأدبت بالبصرة . . » .

وقد ذكره فريق : « الرياش » . وقال في (كشف الظنون) : « الرياش المصطفى » والصواب : الرياشي المصطنعي كما ذكرنا .

٦٨ — زجر النابح :

يأتي ذكره عند الكلام على (لزوم ما لا يلزم) .

٦٩ — كتاب السادن :

يأتي ذكره عند الكلام في (الفصول والغايات) .

(١) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ١٠٨ عن الإرشاد لياقوت .

٧٠ — سجع الحمائم :

يتكلم فيه على ألسن أربع حمائم . وكان بعض الرؤساء سأله أن يصنف له تصنيفاً يذكره فيه ؛ فأنشأ هذا الكتاب ، وجعل ما يقوله على لسان الحمامة في العظة والحث على الزهد ، وهو أربعة أجزاء ، ومقداره ثلاثون كراسة [١] .

٧١ — رسالة الغفران :

كان رجل من أدباء حلب يقال له أبو الحسن علي بن منصور الحلبي ، ويلقب بدوخلة ، ويعرف بابن القارح ، وكان قد فارق حلب مدة ، ثم وردها فانكرها لفقدان المعرفة والجار ؛ وكان أبو الفرج الزهرجي ، كاتب نصر الدولة ، كتب رسالة إليه ، وأخرى إلى أبي العلاء وكلف ابن القارح أن يوصلها إليه فسرقت . فكتب إلى أبي العلاء هذه الرسالة .

خلاصة مانشتمل عليه رسالة ابن القارح وتاريخ إنشائها :

يذكر [ابن القارح] فيها شوقه إلى [أبي العلاء] وحنينه إلى لقائه ؛ ويثني على فضله ، ويشكر مالقيه ممن يدعي العلم . وقد أشار فيها إلى أنه لقي الزهرجي بآمد ؛ ومعه خزانة كتبه ، فعرضها عليه ، فقال له : إن كتبك هذه يهودية ؛ فأنكر ذلك عليه . وأن الزهرجي كتب إليه رسالة يقرظه فيها .

ثم تصدى في رسالته هذه إلى ذكر المتنبي ، وانتقد عليه تصغير بعض الألفاظ ، وادعاء النبوة وغيرها ، ثم استطرد إلى ذكر جماعة من الزنادقة كبشار ، وصالح بن عبد القدوس ، والمقنع ، والصناديقي في اليمن ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وأبي عيسى ابن الرشيد ، والجنابي الذي

(١) انظر تعريف القدماء الصفحات : ٤٤ ، ١٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢٧٤ ، ٥٣١ .

أخذ الحجر والميزاب من الكعبة ، وعلوي البصرة ، والحلاج ، وابن أبي العزافر ؛ وابن أبي جعفر محمد بن علي الشلمغاني ، وابن أبي عون صاحب كتاب (التشبيه) ، وأحمد بن يحيى الراوندي ، وعلي بن العباس الرومي وأبي تمام ، والمازيار ، والأفشين ، وذكر طرفا من أخبارهم وآثارهم .

وبعد أن شكا من عصره وأهله ، ذكر أنه زار المعرة ، فوجد أهلها معترفين بعوارف أبي العلاء ، ووجد أحمد بن خلف الممتع رطب اللسان بشكره .

ثم ذكر أن أتباع النبي ﷺ كانوا في أول دعوته من المستضعفين ؛ وكيف كان بدء الدعوة في قريش ، ثم أفاض في الشكوى من عكوفه على الأماني ، وحذره من الدنيا وتقلبها ، وقلقه من صروفها .

وذكر فيها أنه عرضت عليه كأس خمر ، فأباها وقال : خلوني والمطبوخ على مذهب الأوزاعي ؛ ثم عاتب نفسه .

وذكر طائفة من العلماء الذين أخذ عنهم أو اختلف إليهم في بغداد وغيرها ؛ وأنه لازم أبا الحسين المغربي ، وأشار إلى ما كان بينه وبين أبي القاسم المغربي من حب وبغض ؛ وأنه بلغه أن أبا العلاء قال فيه : إنه هو الذي هجاء أبا القاسم المغربي ، فراعه ذلك وعتب عليه فيه .

ثم مدح أبا العلاء ، وأثنى على ماسمعه من رسائله . وذكر ابن خالويه ، وأبا الطيب اللغوي ، وسرعة إجابته على المسائل التي وردت إليها من سيف الدولة .

وأتى على ماأصابه من تغير حاله ، لكبر سنه وضعفه عن الكتابة والدرس ، وضعف حفظه . وذكر أن بنت أخته سرقت له ٨٣ دينارا ، ثم ردتها بعد تهديد السلطان إياها . ثم اعتذر عما في رسالته هذه من الخطل والزلل ، وطلب الجواب عليها لأنها استحسنت وكتبت عنه .

وهي مطبوعة مع (رسائل البلغاء في ص ١٩٤) وظاهر كلامه في الرسالة أنه كتبها بعد أن بلغ نيفا وسبعين سنة . ونقل عنه أن مولده سنة ٣٥٤ هـ . ويفهم من (رسالة الغفران) أنها كتبت سنة ٤٢٤ هـ فعلى هذا يجب أن تكون رسالة ابن القارح كتبت في هذه السنة أو التي قبلها .

* * *

سبب تأليف رسالة الغفران وتاريخ وضعها ، وسبب وضعها على هذه الصورة :

لم يبين أبو العلاء السبب الداعي إلى تأليف رسالة الغفران ولا نقل أحد عنه ذلك ، وإنما فهم من وضعها أنه كان يريد منها إجابة ابن القارح على رسالته التي تقدم ذكرها .

* * *

أما تاريخ وضعها ، فيظهر من كلام أبي العلاء فيها أنه وضعها نحو سنة ٤٢٤ هـ لأنه ذكر في (ص ٥٨)[1] أن ابن القارح قال : إن الشاهد على توبته عبد المنعم بن عبد الكريم ، قاضي حلب في أيام شبل الدولة . وهذا ولي حلب من سنة ٤٢٠ هـ إلى سنة ٤٢٩ هـ . وقال في (ص١٤٩) : « ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب في سنة ٤٢٤ هـ اسمه فلان بن فلان وصفته كذا . . . »[2] .

* * *

وأما وضعها على هذه الصورة فقد يكون له أسباب منها :

١ً ـ أن ابن القارح لم يقتصر في رسالته على موضوع واحد ، ولا على علم واحد ، ولا رجل واحد له خاصة واحدة ؛ وإنما حشر في رسالته

(١) رسالة الغفران طبعة أمين هندية وانظر ص ١٥٤ من تحقيق بنت الشاطئ ط ١ .
(٢) انظر الرسالة تحقيق بنت الشاطئ ط ١ ص ٣٨٧ .

مسائل متعددة ، من فنون مختلفة ؛ ورجالا مختلفين في الصفات والنحل والمشخصات . وقد يتعذر على الباحث أن يجد بين كل واحد وآخر وواحدة وأخرى منها جامعة تجمعهما ، أو رابطة تربط إحداهما بالأخرى ، ولا تتأتى الإجابة عن كل ماسأل إلا أن تكون الأجوبة على وفق الأسئلة . ولكن أبا العلاء اختار هذه الصورة ، فاستطاع بها أن يجمع مااختلف ، ويؤلف ماافترق ، ويجد مناسبة بين بعض أجزائها وبعضها الآخر .

٢ ـ أن أبا العلاء كان يسيء الظن بأكثر الناس ؛ وهو على حق في ذلك ، لأنه كان محسوداً على فضله وعلمه . فربما توهم أن ابن القارح تصدى في رسالته إلى بعض المسائل ، وهو يريد منها أن يسبر غور المعري في علمه بها ، ويكشف ناحية من مقدرته في فهمها وتحقيقها ؛ وأن ينسقطه ليقف له على عثرة ، لأنه كان موتوراً من المعري لما بلغه عنه من أنه قال فيه : إنه هجا أبا القاسم المغربي ، فأراد أبو العلاء أن يبين له أنه فوق مايظن به ، وأعظم مما يتوقع منه ؛ فأجابه عما أراد وزاد واختار هذه الصورة لجمع المسائل كما قلنا .

٣ ـ أن أبا العلاء كان غزير المادة ، قوي الحافظة ؛ فإذا سنحت له فرصة تفجر لسانه كالينبوع الثرثار ، حتى يكاد يغرق سامعه بما يورده عليه من المسائل والفنون .

وإذا سئل عن مسألة أحب أن يجعل الجواب جامعاً مانعاً ، ويضيف إليه أشباه المسألة ونظائرها ، وأضدادها ، ومعظم مايتعلق بها ، ولو لأدنى مناسبة . وقد ذكرنا أن ابن القارح لم يقتصر على موضوع واحد ، ولا فن واحد ، ولا رجل واحد ، فأحب أبو العلاء أن يكون جوابه جامعاً لكل ماسأل ، وأن يضيف إليه كثيراً مما له علاقة بتلك المسائل أو مما تكون بينه وبين تلك المسائل مناسبة ، فأتى برسالة الغفران :

أولاً : ليبين فيها عن سعة اطلاع على مفردات اللغة ، ومعرفة المستعمل ، والمهمل ، والشاذ ، والنادر ، والفصيح منها . مع إحاطة بمقاييسها ، وقواعدها ، والصحيح وغيره من وجوه الإعراب فيها .

ثانياً : وليظهر فيها قدرته على التصرف في تأليف الكلمات واستعمالها في كل مايشاء .

ثالثاً : وليعرب للقارىء عن وفرة اطلاعه على القراءات المتواترة وغيرها ؛ وعلى أقوال المفسرين وتأويلهم وتعليلهم بعض الوجوه والأحكام .

رابعاً : وليوضح شدة اضطلاعه بعلمي العروض والقوافي ، وكثير من مسائل البيان .

خامساً : وأضاف إلى ذلك مباحث جليلة ، تدل على تمكن في الأحكام الشرعية ، وتعمق في علم الكلام ، ووقوف على معتقدات الفلاسفة ، والزنادقة والفرق الزائغة من مسلمين وغيرهم ؛ ومالهم من العقائد والمزاعم .

سادساً : وملأ الرسالة بما يدل على أنه كان حفيّاً بعلم التاريخ ، ومعرفة الحوادث والرجال الذين لهم علاقة بالتاريخ الإسلامي وغيره . وقد كانت مسائل الأدب في رسالة ابن القارح أوفر من غيرها ؛ فاقتضى ذلك أن تكون مسائله في (رسالة الغفران) أكثر من غيرها .

وقد أراد أبو العلاء أن يظهر مقدرته العلمية ، وعبقريته الأدبية ، بأسلوب لايمل منه القارىء ، فاختار طريقة النقد لأقوال المتقدمين وآرائهم تارة على لسان ابن القارح ، وتارة على لسان غيره . وأثار حواراً بين الشعراء أنفسهم ، والعلماء أنفسهم ، وبين الشعراء والرواة والعلماء . وأظهر مالديه من وجوه النقد وأدلته ، فإما أن يبطل قول القائل أو يؤيد أحد الفريقين على الآخر ؛ وأحياناً يسكت ، والسكوت إقرار . ولو أنه أورد كل مسألة على حدة ، لجاء أسلوبه جافاً مملاً مقتضباً يتعذر ايجاد المناسبة فيه بين كل مسألة وسابقتها أو لاحقتها .

وهذه المباحث التي أوردها في (رسالة الغفران) ليست على نمط واحد في القلة والكثرة ؛ ولكنها مختلفة ؛ فقد يكون المبحث الواحد مشتملا على مسألة واحدة ، وقد يكون مشتملا على مسألتين أو أكثر ؛ وربما لم يكن بين المسألتين أو مافوقهما مناسبة ظاهرة ؛ وربما كانت كل واحدة من علم مستقل .

وفيها مسائل تتصل بالجن والإنس من عهد آدم فما بعده ، ومسائل تتعلق بالحيوان ، وما يزعمه الناس فيه ، ومعتقدات ومزاعم لأمم مختلفة وأجيال متغايرة .

ولعل أبا العلاء لما رأى ذلك فكر في الناس شكل يحشر فيه هذه الأمور ، ويكون شاملا لها على تباينها وتوافقها ؛ فلم ير غير الحشر الذي تحشر فيه المخلوقات على علاتها يوم القيامة ، فاتخذ منه صورة رائعة ، أو قصة خيالية بديعة ؛ ورتب فيها المسائل على وجه محبوب متسلسل بقدر الطاقة ، وعرض فيها ما أراد من تحقيق وانتقاد ؛ وبين للأواخر أنه استطاع أن يأتي بما لم تستطعه الأوائل .

وقد كان موفقاً في خياله واختياره ، لأنه عرض صورة لم تقع بعد ، وإنما هي ثابتة في أذهان الناس كأنها أمر واقع ، وهي وليدة فكره الواسع ونتيجة خياله المبدع ، لم يحتذ فيها على مثال غيره ، ولم يستعن في تكوينها بغير قريحته .

فهذه هي أسباب وضعها على هذا النمط أو من أعظم أسبابه فيما أظن .

رأي المتقدمين في أسباب وضعها على هذا الشكل :

لم يصل الينا شيء من أقوال الأدباء المتقدمين في بيان الأسباب التي حملت أبا العلاء على اختيار هذا الشكل لرسالة الغفران .

أما الفقهاء ، والمحدثون ، والمؤرخون المتفقهون ؛ فأكثرهم نظر إلى هذه الرسالة من الوجهة الدينية ، فحمل على صاحبها حملات منكرة ، ورماه بالكفر والإلحاد والزندقة والمروق من الإسلام والتدين بدين غيره ، ونحو ذلك مما ذكرناه في غير هذا المكان ، وحمل كل ما ذكره فيها مما يتعلق بالأمور الدينية والآخرة على التهكم والاستخفاف والاستنكار والهزء ؛ وجعل الرسالة حجة على إنكار صاحبها الحشر مع أنها موضوعة في الحشر وأكثر ما فيها يتعلق بالحشر وما يتصل به .

ولم يلتفت أحد منهم إلى ما في الرسالة من علم واسع ، وخيال رائع ، وأدب جم ، وأسلوب ساحر ، وتحقيق وتدقيق ، وتفكير عميق ، مع اعتراف كل منهم بفضل المعري وغزارة علمه ودقة نظره وسعة اطلاعه .

وقد كتب كثير منهم في أبي العلاء قبل هذا العصر ، ولكنهم درجوا على طريقة واحدة وهي أن ينقل المتأخر أقوال من تقدمه ؛ وإن تيسرت له زيادة في الطعن في دين المعري لا يحجم عن ذكرها ، ويعدها زيادة في علمه .

رأي المتأخرين أي المعاصرين في أسباب وضعها :

أما أهل هذا العصر الذي نحن فيه ، فهم أقل تمكناً في العلوم العربية ممن تقدمهم ؛ ولكنهم أجرأ على الحكم بالصحة والفساد ، وعلى تعليل الأحكام بعد وقوعها ، وعلى ادعاء أسباب للحوادث قبل التأمل والتثبت والتعمق في التفكير ، وأكثر استنتاجاً من النصوص والآثار . وقد اقتبسوا من علماء الغرب منهاجاً جديداً لدراسة النصوص والآثار العلمية والأدبية ؛ يتناول البحث عن بيئة صاحبها الطبيعية والاجتماعية ، وعن مآخذ ثقافته ، وعلاقته بزمانه وما أثر فيه ، وغير ذلك مما يجعل الباحث كأنه يعيش في الزمن الذي كان فيه صاحب الأثر ؛ ويحلق في

الأجواء التي كان يحلق فيها ، ويصور جميع ما يكتنفه من المقومات ؛ ويحلل الأثر إلى العناصر التي يتألف منها ، ثم يستخلص صورة تامة عما في أثره من فلسفة في الدين والأخلاق والاجتماع وغيرها .

وهذه الطريقة لم تكن معروفة عند العرب من قبل ، وإنما اقتبسوها من الغربيين في هذا العصر كما قلنا .

وكان من نتيجة الاطلاع عليها ، أن انقسم الأدباء في عصرنا إلى فريقين :

أحدهما يطبع على غرار المتقدمين ، فينقل ما يرى وما يسمع ، ويبين ما يدل عليه الأثر في لفظه ومنطوقه .

وقسم حاول أن يحتذي على مثال الغربيين ، فاستطاع أن يجاريهم في النصوص الأعجمية ؛ لأنه رأى من تقدمه فيها ، فهو ينسج على منواله ، ولكنه لم يستطع أن يوفي العمل حقه في النصوص العربية ، فأصاب وأجاد في بعض النواحي ، وأخطأ وقصر في بعض آخر فلم يكن موفقا .

ومنهم من حمله الغرور والإسراف في الجرأة على النيل من المتقدمين ، واستصغار شؤونهم في كل ما عملوا ؛ واليك مثالاً يصور ما أشرنا اليه :

قال بعضهم [1] في كلامه في (رسالة الغفران) : « كان أبو العلاء يتكلف الغريب ويتعمده ، ليصد عامة الناس وجهالهم ، سواء في ذلك العلماء وغير العلماء ، عن قراءته والظهور على ما فيه . وكأن أبا العلاء كان لا يكتب لعصره ، وكأنه كان يحس أن عصره خليق ألا يكتب له ؛ وكأنه كان يكتب لهذا العصر الحديث الذي نحن فيه ، وللعصور التي ستليه ، وكأنه كان يخشى على آثاره الأدبية أن يفهمها أهل زمانه فيفسدوها ويشوهوها ويحولوا بيننا وبين فهمها ؛ وكأنه أقام من الغريب

(١) الدكتور طه حسين (ج) .

وقواعد النحو والصرف والعروض والقافية طلاسم وأرصاداً شغل بها أهل عصره عن هذا الكنز حتى لا يصلوا اليه ، وحتى تسلم لنا نحن خلاصته ، فنترك للقدماء نحوهم وصرفهم وغريبهم وعروضهم ، ونفرغ لخلاصة هذا الكنز من فلسفة في الخلق والجماعة والدين » .

وفي هذا الكلام نظر من وجوه كثيرة تبعده عن الصواب منها :

١ ـ أن معظم الأدباء في عصرنا يتوسعون في تفسير الغريب ، فيجعلون كل لفظ لا يفهمونه ، بدون رجوع إلى دواوين اللغة ، من الغريب ، وهذا بالنسبة إلى ما يفهمون يقارب تسعين في المائة أو أكثر ، وهذا غير صحيح ، ومخالف لما ذكره علماء البيان في تعريف الغريب والغرابة .

٢ ـ أن الغريب في عصر أبي العلاء كان أقل منه في عصرنا . وقد قلنا غير مرة : إن أبا العلاء لكثرة ماكان يدور على لسانه وقلمه وسمعه من الألفاظ العربية ، كان يأنس بكثير منها ، ولا يعده غريباً كما نعده ، لأننا نتعلم العربية الصحيحة كما يتعلمها الأعجمي ، وكما نتعلم اللغة الأعجمية ، ولذلك نجد معظمها غريباً بالنسبة إلينا .

٣ ـ أننا قلنا أيضاً : إن أبا العلاء إذا أصاب فرصة للكلام في موضوع علمي أحب أن يظهر علمه وثقافته ، حتى يكاد يستقصي كل ما يتعلق به ، ويورد ما مر في خلده من الألفاظ ، ولا يتعمد إيراد الغريب إلا إذا اضطره إلى ذلك السجع أو القافية أو شيء آخر من البواعث ، وربما أورد كلمة غريبة ليفسرها ، ويضيف بذلك فائدة لغوية على ما تضمنه كلامه من المعاني والمقاصد .

٤ ـ أن أبا العلاء لو أراد أن يصد الناس عن الاطلاع عما في كلامه ، لأتى من الغريب بما لم يستطع فهمه أكثر المتقدمين والمتأخرين . ولما فسّر لهم مواطن الغموض والإبهام . ولكنه كان على عكس هذا ، يفسر الكلمة ، والجملة ، والرسالة ، والكتاب .

٥ ـ ليس من الحق أن نقول : إنه كان لا يكتب لعصره ، بل لهذا العصر الذي نحن فيه ، وكأنه يحس أن عصره خليق بأن لا يكتب له ، أو أنه كان يخشى على آثاره أن يفهمها أهل زمانه فيفسدوها . . . إلى آخر ما تقدم .

لأن معنى هذا الكلام أن أهل عصره كانوا لا يفقهون لأسرار البلاغة معنى ، ولا يدركون من دقائق الثقافة والنصوص التي تدل عليها شيئا . وأن أهل هذا العصر خير منهم في كل شيء . وهذا غير صحيح ، لأن أبا العلاء إنما كتب لأهل زمانه ، وأوضح مواطن الإبهام والغموض من كلامه لهم لا لغيرهم ، وقد استخرجوا الأدلة على عبقريته ، وعظم ثقافته ، وإلحاده ، وزندقته ، وفلسفته ، وأدبه ، وغير ذلك من كلامه لا من كلام غيره . ولولا أنهم فهموه حق الفهم لما استطاعوا أن ينتقدوه ويرموه بما رموه به ، ويعجبوا بما أعجبوا به من أدبه . أما تدقيق النصوص وحلها على الطريقة الحديثة فلم يكن معروفاً في ذلك العهد ـ كما قلنا ـ ولذلك لا يجوز أن نعيب السابقين لأنهم لم يسلكوا طريقاً لم يهتد اليه الناس إلا بعد مضي نحو الف سنة ، وبعد أن أصبح امتزاج البشر أكثر مما كان في ذلك العهد الماضي ، وبعد أن اطلعت كل أمة على أكثر ما عند غيرها من الأمم من الثقافات ومناهجها .

سبب إكثاره من المعاني العلمية في آثاره :

ولقد أكثر أدباء هذا العصر لوم أبي العلاء على استخدامه المعاني العلمية في نظمه ونثره . ولم ينصفوه في ذلك ، لأنه كان مدفوعاً إلى ذلك بحكم الضرورة ، لأن كلاً من الشاعر والكاتب يقتبس معانيه من بيئته الطبيعية وغيرها ، كما يستمد أخيلته منها . وقد حجبته الأيام عن استمداد كل ما يريد من مشاهد الطبيعة بسبب العمى ، إلا قليلاً مما أدركه من الصور الطبيعية قبل عماه ، ومما تلقفه من أفواه الناس .

وقد كانت للعلوم العربية في عهده منزلة لا تضاهى ، وكان غزير العلم فيها ؛ فكان يقتبس منها بعض المعاني ويفرغه في نظمه ونثره ؛ وربما تسنى له من المعاني المأخوذة منها ما لا يتيسر له ولا لغيره مثله من غيرها كقوله :

بُعْدِي عَنِ النَّاسِ بُرْءٌ مِنْ سَقَامِهِمُ ... وَقُرْبُهُمْ لِلْحِجَا وَالدِّينِ أَدْوَاءُ[1]

كَالْبَيْتِ أُفْرِدَ لَا إِيطَاءَ يُدْرِكُهُ ... وَلَا سِنَادَ وَلَا فِي اللَّفْظِ إِقْوَاءُ

* * *

وقوله :

مَا لِي غَدَوْتُ كَقَافِ رُؤْبَةَ قُيِّدَتْ ... فِي الدَّهْرِ لَمْ يُقْدَرْ لَهَا إِجْرَاؤُهَا[2]

أُعْلِلْتُ عِلَّةَ قَالَ وَهْيَ قَدِيمَةٌ ... أَعْيَا الْأَطِبَّةَ كُلَّهُمْ إِبْرَاؤُهَا

* * *

وقوله :

بِتُّ كَالْوَاوِ بَيْنَ يَاءٍ وَكَسْرٍ ... لَا يُلَامُ الرِّجَالُ إِنْ أَسْقَطُونِي[3]

وإذا كان أبناء هذا العصر لم يكترثوا بهذه العلوم كثيرا ، ولم يتعمقوا فيها تعمق المتقدمين ، حتى يستطيعوا أن يدركوا ما لها من المزايا في الثقافة العلمية عند المتقدمين ، فإنهم يرونها طلاسم وأرصادا ، ويظنون أن المعري جعلها سياجاً حول معانيه التي وضعها لغيرهم ، وقشوراً طرحها

(١) الزوميات ٥ ص ٢٢ وفيها : « بعدي من الناس . . » وانظر ما سبق ص ٦٣٤.
(٢) الزوميات ٥ ص ٢٣ وقاف رؤبة : هي الروي في قافية أرجوزته اللامية ومطلعها : وقاتم الأعماق خاوي المخترق .
(٣) انظر ما سبق ص ٥٩٩ .

حول اللباب الذي ادخره لنا ليتلهوا بها عنه . ولو فهموها كما فهمها المعري وأهل زمانه لما عدوها من التوافه والقشور .

وفيما ذكره هؤلاء غمط لفضل المتقدمين ، وإنكار لجميلهم ، بل جهل بمقادرهم العلمية ، ومقاديرهم ، لأنهم هم الذين حفظوا آثار المعري وبينوا ما فيها من عبقرية وعلم .

وفيه أيضاً وصف لأبي العلاء بالجهل والحماقة ، لأنه خاطب قوماً بما لا يفقهون ، ووضع لهم ما لا يفهمون ، ولا ندري من أين علم أننا سنجيء بعد أولئك ، وندرك ما لم يدركوا ، ونفهم ما لم يفهموا .

ولقد تعرضنا لرسالة الغفران وغيرها في الكلام في « النقد » وذكرنا أمثلة من نقد أبي العلاء للمفردات ولوجوه الإعراب ، وأوزان الشعر وقوافيه ، وغيرها مما تشتمل عليه رسائله وكتبه ، وذكرنا شيئاً من نقده للعادات والأخلاق والمزاعم ونحوها في الكلام على (لزوم ما لا يلزم) .

• • •

أبو العلاء في رسالة الغفران

لكل امرىء من عباقرة العلم والأدب خصائص نفسية ، ومنازع أدبية ، وقد يبدو معظمها في كثير من آثاره ، وأحياناً يخفى بعضها لعارض متعمد أو غير متعمد ، ولكن دراسة الآثار الكثيرة ، وتأمّل النصوص المختلفة ، وضم المنتشر منها ، ومقايسة الأمور بأشباهها ، وجمع الشيء إلى ما يشابهه أو يقاربه ، وتمييزه مما يضاده ويخالفه ، ونحو ذلك من الأمور ، يدل بطريق الإشارة على كثير مما يخفى من تلك الخصائص والمنازع .

وقد أشرنا في مواطن كثيرة إلى أن أبا العلاء كان غزير المادة ، محباً للإفادة ، حريصاً على إظهار علمه وقدرته في كل فن . وأنه يتخذ مناسبات لإيجاد وسائل يبرز فيها من مكنون علمه ومخزون صدره ما يملأ عين السامع وأذنه .

وكان فوق ذلك شديد التواضع ، مولعاً بنقد الأئمة والأعلام ، جريئاً في نقده ، حرّاً في تفكيره ، صادقاً باقتحام الحجج التي لا يرتضيها ، ودفع الشبه التي ينكرها .

وهذه جملة من تلك الخصائص تتمثل في (رسالة الغفران) :

التواضع :

تواضع أبي العلاء شنشنة معروفة منه في آثاره المنظومة والمنثورة ؛ ولكنه في (رسالة الغفران) بالغ وأسرف حتى حلف كيمين امرىء القيس [1] ، ويمين زهير [2] ، وحذّاء ساعدة [3] ، وأليّة الفرزدق [4] ، ولو كان له امرأة لحلف بالطلاق ، أنه لمكذوب عليه ، يظن أنه

---

(١) في بيت من لاميته وهو :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

انظر رسالة الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٣١٤ .

(٢) قسم زهير بن أبي سلمى في ميميته !

فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

(٣) ساعدة ابن جؤية من بني كعب ، شاعر جاهلي ، والحذّاء : اليمين القاطعة ، انظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط١ ص ٣١٥ .

(٤) في بيتين من ميميته التي مطلعها :

إذا شئت هاجتني ديار محيلة وسربط أفلاء أمام خيامي

والبيتان :

ألم ترني عاهدت ربي وانني لبين رتاج قائما ومقامي

على حلفة لا أشتم الدهر مسلماً ولا خارجاً من فيّ زور كلام

انظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط١ ص ٣١٥ وخزانة الأدب ٣٥٣/٤ ، وديوانه ص ١٨٦ طبعة مصر سنة ١٢٩٣ .

من أهل العلم ، وما هو له بالصاحب ولا الحلم[1] . وأنه يجذل بمن عابه لأنه صدق فيما رابه ، وأنه ليس في العير ولا النفير . وقد أبدع في ذلك في (ص ١٢١ و ص ١٩٣ من رسالة الغفران)[2] .

ولكنه عند شروعه في مبحث ما ، كان ينسى أو يتناسى هذا التواضع ، فيقدم إقدام الأتيّ[3] ، ويجول جولة القويّ . وينفق إنفاق الموسع الغني ، فيتكشف عن مظاهر ، من تأملها ظن أنه غيره ، من ذلك :

١ً — كثرة حفظه مفردات اللغة ، ومعرفة النادر ، والغريب ، والفصيح ، والشاذ ، والرديء ، وغيره . وترى من الأمثلة الدالة على هذا تغييره كلمة الروي في بيتي النمر بن تولب على عدد حروف الهجاء في (ص ١٢ من الغفران)[4] واقتنانه في الجمل الدعائية لابن القارح ، وهي كثيرة تتجاوز المائة والثلاثين . وشرحه الكلمات اللغوية التي وردت في كلامه أو في كلام غيره . وإيراده المترادفات من الأسماء كأسماء الخمر في (ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٤)[5] والمتشابهات من الأسماء كالإبريق (ص ٩) والرباب (ص ٤٣) والدفانير (ص ١٩٥) والثمانين (ص ٢٠١)[6] ومايمكن اشتقاقه من بعض الأسماء ، كالدامغ ، والمرجان (ص ١٥٨) والفريد (ص ١٦٠) والقضيب (ص ١٩٥)[7] .

(١) الحلم : الصاحب والصديق .
(٢) الغفران طبعة أمين هندية .
(٣) الأتيّ : السيل الجارف .
(٤) انظر ما سبق ص ٦٠٥ .
(٥) الغفران طبعة أمين هندية .
(٦) المصدر السابق .
(٧) المصدر السابق .

وهذا القدر وحده كاف لأن يكون من يستوعبه أمة وحده في اللغة .

٢ً — شدة تمكنه من قواعد الصرف والنحو ، ومعرفة أوزان الأبنية المسموعة والمقيسة والشاذة ، وكثرة مايعرفه من نظائر الأوزان والشواذ عنها . ويتبين ذلك فيما انتقد به الرواة والشعراء والعلماء ، من الخروج عما يقتضيه السماع والقياس في الأبنية ؛ وعما تقتضيه قواعد الإعراب الصحيحة ، كالأبيات التي ذكر فيها وجوهاً للإعراب ، أو رجح وجهاً على آخر كقول عدي (ص ٢٦ و ٢٨) :

[يَا لَيْتَ شِعْرِي] وَإِنَّ ذُو عَجَّةٍ[1] . . . . . .

. . . .

[أَرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ أَمْ بُكُورُ] أَنْتَ فَانْظُرْ [لِأَيِّ حَالٍ تَصِيرُ][2]

وقول امرىء القيس (ص ٩٠) :

. . . . . إِنِّي امْرُؤٌ صَرْعِي عَلَيْكِ حَرَامُ[3]

وقوله (ص ٨٩) :

. . . . . وَلَا سِيَّمَا يَوْمٌ . . .[4]

(١) صدر البيت الرابع عشر من صادية عدي بن زيد ، انظر الخبر في الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٧٤ .
(٢) مطلع رائية عدي ، انظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٧٦ .
(٣) عجز بيت لامرىء القيس وصدره : « جالت لتصرعني فقلت لها اقصري » الغفران ـ تحقيق بنت الشاطىء ص ٢٣٢ وفيها : « فقلت لها قِرِّي . . . » .
(٤) من عجز بيت من لامية امرىء القيس المشهورة وتمامه :
« ألا رب يوم لك منهن صالح . . . . بدارة جلجل »
الغفران تحقيق بنت الشاطىء ص ٢٢٩ .

وقوله (ص ٨٧) :

. . . . . والغُثَّاء [1]

وقوله (ص ٩١) :

. . . . . كمِشْيَةِ قَسْوَرَا [2]

وقول الجعدي (ص ٣٥) :

. . . . . ولا مُسْتَنْكِرِ [3]

وقول بشار (ص ٨٦) :

. . . . . سُبُدِ [4]

٣ً ـ تمكنه من علمي العـروض والقوافي ؛ ويتراءى أثر ذلك في الأبيات التي أوردها ، وفيها عيوب القافية أو زحافات أو علل أنكرها بعض العلماء أو خالف فيها .

(١) من عجز بيت من لاميته وتمامه :
« كأن ذرى رأس المجير غدوة من السيل . . . . فلكة مغزل »
انظر الفرقان تحقيق بنت الشاطىء ص ٢٢٦ .

(٢) من عجز بيت من رائيته التي يصف فيها توجهه الى قيصر الروم مستنجداً وتمامه :
« وعمرو بن درماء الهمام إذا غدا بصارمه يحمي . . . . »
الفرقان ـ بنت الشاطىء ص ٢٣٤ .

(٣) من عجز بيت للنابغة الجعدي وتمامه : «وليس بمروف لنا أن نردها صحاحاً...أن تقرا»
انظر ماسبق ص ٥٩٠ .

(٤) وتمت هذه الكلمة قافية في بيت من أرجوزة لبشار بن برد ومطلعها :
« يا طلل الحي بذات الصمد باقة خبر كيف كنت بعدي ؟ »
انظر الفرقان تحقيق بنت الشاطىء ص٢٢٣ .

٤ً ـ شدة اطلاعه على القراءات ، ومعرفته المتواترَ وغيرَه ، ومعرفته وجهَ كل قراءة من الإعراب وتأويله . ويتجلى مثل هذا فيما ذكره من قراءة الحية التي كانت في دار الحسن البصري وحمزة بن حبيب (ص ١١١) وقراءة أبي رجاء ﴿ يَحْبِبْكُمُ الله ﴾ [1] (ص ٩٣) وقراءة بعضهم ﴿ مِنْ حَيْثُ أفَاضَ النَّاسِ ﴾ [2] (ص ١٠٩) وقراءة ﴿ سَوَاءُ العَاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ ﴾ [3] (ص ١٠٩) .

٥ً ـ كثرة مايحفظه من الشواهد والأدلة والأمثلة ، فإنه أورد في هذه الرسالة أسماء لكثير من الشعراء وقد ذكرنا طائفة منهم في مصادر ثقافته في الصفحات :٦٥ ـ ٦٩٦ السابقة .

٦ً ـ شدة اعتماده على حفظه وثقته بنفسه ، وترى من ذلك قوله في (ص ١٠٦) لمجهل : « زعم الأصمعي أنه لايقال : أرْعَدَ ، وأبْرَقَ ، في الوَعِيدِ ولا [في] السحاب . فيقول : إن ذلك لخطأ من القول ، وإن هذا البيت لم يقله إلا رجل واحد من خَدَمِ الفصاحة ، إما أنا وإما سواي ، فخذ به وأعرض عن [قول] السفهاء » [4] . وذكر في (ص ٢٠٦) بيتين لأبي بكر الشبلي فيهما قوله :

وَإِذَا كَانَ فِي القِيَامَةِ نُودِي . . . . . .

(١) آل عمران الآية ٣١ وانظر الفرقان ـ بنت الشاطىء ص ٢٤٠ .
(٢) البقرة الآية ١٩٩ .
وانظر الفرقان ـ بنت الشاطىء ص ٢٨٢ .
(٣) الحج الآية ٢٥ .
وفي الفرقان ـ بنت الشاطىء ص ٢٨٢ .
(٤) الفرقان تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ص ٢٧٤ وفيها : « . . . إلا رجل من جذم الفصاحة » .

ثم قال : « هكذا أنشدته « نودي » بسكون الياء ، ولا أحب ذلك ، وإن كان جائزاً ، وإنما يوجد في أشعار الضعفة من المحدثين .. » (١)

٧ ـ الاستقصاء في المباحث التي يوردها ، ويتبين هذا في ذكر الشيء وما يشابهه في اللفظ أو يقاربه في المعنى .

٨ ـ الابتكار ؛ فقلما رأينا أثراً كاملاً لأبي العلاء ، خالياً من ابتكاره . فقد ذكر في (رسالة الملائكة) مثل تقسيم بيت الشعر إلى فارد وغيره ؛ وتقسيمه إلى ما يكمل فيه معناه وغيره .

وذكر في (رسالة الغفران) حداً جديداً للزمان في (ص ١٣٨) وأقسام البديه (ص ١٩١) وتلبيات العرب (ص ١٨٦) وعرف الشعر تعريفاً جديداً في (ص ٥٥) (٢) .

٩ ـ سعة الخيال :

أبرز أبو العلاء هذه الرسالة على شكل قصة خيالية ، بأسلوب مبتكر رائع ؛ وقد اتخذ منه وسائل لجمع المناسبات بين المسائل المختلفة في الحادثة الواحدة ، أو المسائل المتقاربة في الحادثة الواحدة المتعددة رجالها ؛ كما اتخذ وسائل لإيجاد مناسبات بين الألفاظ التي يوردها ، ويحدث صلة لربط بعضها ببعض ؛ وقد افتن بإيراد الصور اللطيفة . وأروع ما فيها إيصال المباحث إلى النفوس بأسلوب لا ترافقه سآمة ، ولا يتطرق اليه ملل .

(١) الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ ، ص ٥٥٠ وبيتا أبي بكر هما :

باح مجنون عامر بهـواه وكتمت الهوى فزلت بوجدي
وإذا كان في القيامة نودي أين أهل الهوى تقدمت وحدي

(٢) انظر هذه الصفحات في الغفران طبعة أمين هندية . وتقابلها الصفحات ٣٥٩ ، ٥٠٩ ، ٤٩٣ ، ١٥٨ من تحقيق بنت الشاطىء ، والبديه : للباخة .

إذ جـاء بعضه على شكل سؤال من شاعر ، أو من راو أو عالم ؛ وبعضه على صورة جماعة يترسون بأحد العلماء ، ينكرون عليه تصرفه في أقوالهم ، وجاء بعض منه على شكل حوار بين شاعرين ، أو بين شاعر وراو ، أو أكثر من ذلك . وجاء قسم منه على شكل طير تحول إنساناً ، أو على لسان حورية تنفلق عنها ثمرة . ومنها ما جاء على لسان حية ؛ ومنها ما جـاء على لسان الجن . ونحو ذلك مما جاء في الرسالة . فهو ينتقل بقارىء كتابه من حديث شهي بأسلوب طريف ، إلى آخر لا يقل عنه في طرافته ولطافته . ولا يكاد يشعر القارىء بنبوة في اللفظ ، ولا تفكك في الجمل ولا اقتضاب في المعنى .

١٠ ـ يتضح لمن أنعم النظر في هذه الرسالة ، أن أبا العلاء صحيح السليقة ، وافر العلم ، حاضر الذهن ، سريع الإدراك والفهم . فلا تكاد تمر به حكمة لشاعر أو غيره ، إلا أدركها ، وأدرك ما فيها من جمال وروعة ؛ أو عاهة وخلل . وكان فوق ذلك محباً للنقد والتنقيب ، لأن النقد يظهر ما يكمن في النفوس من علم وفهم وذوق .

وأكثر من كان ينتقده من الشعراء ، المفلقون ، كامرىء القيس ، والنابغة الذبياني ، وطرفة ، وعدي بن زيد ، وعلقمة بن عبدة ، وعمرو ابن كلثوم ، والحرث اليشكري ، والمرقش ، وحسان بن ثابت ، وبشار ابن برد .

ومن العلماء ، الأئمة والطبقات العالية من النحويين واللغويين كسيبويه (ص ٦١ و ١٣١ و ١٣٧) (١) وأبي علي الفارسي (ص ٣٨ و ٥٧) (٢)

(١) الغفران طبعة أمين هندية وانظر تحقيق بنت الشاطىء ط ١ الصفحات ١٦٣ ، ٣٤٢ ، ٣٥٩ .

(٢) وانظر الغفران تحقيق بنت الشاطىء ط ١ الصفحات ١٠٨ ، ١٥٢ ،